هذا الباب باب عظيم جداً تحتاج إليه الأمة الإسلامية وخاصة في هذ الظروف والمؤلف رحمه الله تعالى ذكر الآيتين ثم ذكر كلام ابن القيم؛ لأن كلام ابن القيم رحمه الله تعالى في تعليقه على هذه الآيات كلام عظيم ونفيس جدا.

باب قول الله تعالى (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية) والتعليق من ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الآيات فيه من الدروس العلمية والمنهجية والتربوية للفرد وللأمة ما ينبغي أن نقف عنده في كل الأحوال وخاصة لما تمر به الأحداث كما يجري في هذه السنوات الأخيرة.

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد المرحلة المكية انتقل وهاجر إلى المدينة وبدأت الغزوات. بدأت الغزوات وكانت المفاجأة غزوة بدر انتصر فيها المسلمون وهم أذلة (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة). معركة لم يخططوا لها، ولم يكونوا يظنوا أنها قد تقع، فكان هذا الانتصار للصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم انتصار سريع.

وهذا قد يقع للأمة مثلما وقع لكثير من الإسلاميين في الثورات العربية، ينطبق عليهم نصركم الله وأنتم أذلة كثير من الإسلاميين في البلاد العربية خرجوا من السجون إلى أن يكونوا قادة وساسة بسهولة، فجاءت غزوة أحد ليصيب المسلمين جراحات. بعد بدر صدم النفاق ولهذا تقول الروايات إن عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه كانوا يترقبون القضاء على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأن قريشا والعرب ستنهيهم في أي معركة.

فلما انتصروا في بدر ذلك الانتصار العظيم قتلوا سبعين من الصناديد وأسروا سبعين وجاءوا معززين مكرمين فقال: عبد الله بن أبي بن سلول هذا أمر قد توجه وبدأ يمارس النفاق. بدأ العملية الدقيقة للنفاق لأنه رأى أن الإسلام توجه في انتصاره.

فلما جاءت غزوة أحد احتاج المسلمون للتعليم؛ لأن المسلمين في بدر انتصروا فظنوا أن أية معركة يكون قائدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجندها أبو بكر وعمر وعدوها صناديد المشركين النتيجة انتصار للمسلمين 100%.

فجاءت غزوة أحد، في أسباب وعوائق وموانع للنصر: جزء منكم - ليس كلكم - جزء منكم يريد الدنيا جزء منكم يعصي (وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون) مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمرهم أمراً قاطعاً أن لا يتركوا الجبل حتى ولو تخطفهم الطير يعني حتى ولو قتلنا المشركون وصارت جثثنا في ميدان المعركة وانتنت وأتت الطيور لتأخذ وتأكل جثثنا لا تتحركوا من الجبل انظر إلى الأمر الصارم وإذا بهم يعصون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولماذا؟

يريدون الغنائم، (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)، فجاء للمسلمين هذا الدرس درس عظيم إلى أبعد الحدود استشهد منهم سبعون وجراحات، أشيع قتل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم جرح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتفخ الكفر واشرأب النفاق مرة أخرى (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية).

هنا يأتي الآية كما في الباب الذي قبل هذا (لو كانوا عندنا ما ماتوا) لو أطاعونا ما قتلوا لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا هذا اعتراض قدري كما يشير ابن القيم رحمه الله إلى أحد الاحتمالين في معنى يظنون في الله غير الحق ظن الجاهلية الاعتراض على قدر الله عز وجل.

لكن الأمر الآخر أعظم وهو أن هؤلاء المنافقين ظنوا أنها القاصمة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودين الإسلام فمن ثم بدأوا يتكلمون ويتبجحون ويظنون. وتأثر بذلك بعض المسلمين ممن عنده ضعف في الإسلام (يظنون في الله غير الحق ظن الجاهلية).

ومن ثم جاء التفسير الذي أورده ابن القيم رحمه الله تعالى أن هؤلاء ظنوا أن الله لا ينصر رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن الإسلام سيضمحل وأن هذه بداية النهاية وأن ... وأن .... هذه ظنون المنافقين وهي ظنون الجاهلية، يظنون بالله ظن السوء بأن الله لا ينصر رسوله، أن الله يخذل نبيه وعباده المؤمنين أن هؤلاء الجاهليين المشركين هم الذين سينتصرون في النهاية، فهل أخذ الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم من غزوة أحد دروساً؟

نقول: نعم أخذوا منها دروسا عجيبة حتى قال ابن القيم رحمه الله تعالى في زاد المعاد في الدروس من غزوة أحد قال: إن المسلمين استفادوا مما جرى في أحد استفادوا منه في فتوحاتهم، يعني صار ما جرى في أحد نبراسا. إذا كان في الفتوحات معناه بعد انتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى.

إذاً دروس أحد إلى يومنا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها: أن الإنسان إذا فرط وأقبل على الدنيا وصار من الأسباب المانعة أيضاً، فأن سنة الله عز وجل أن النصر يتخلف لأهل الإسلام.

لكن لا يمكن أن يكون ذلك سبباً في ضياع الإسلام والمسلمين، ولا أن يكون ذلك ذريعة للقول بقول أهل الجاهلية بأن يظن الإنسان ظن السوء بالله سبحانه وتعالى.

ومن هنا كانت الدروس التي استفادها المسلمون من غزوة أحد عظيمة جداً وكانت الدروس لهم التربوية والعلمية والمنهجية ومراقبة الله وعدم إرادة الدنيا وعدم وعدم دروس عاشوا من خلاله في فتوحاتهم وفي أعمالهم ما يعطينا دلالة على عظمة هذا الدين وأن الله يهيئ الأمة لنصر دينه ويجعل فيها من الأسباب والرجال ما ينصر به دينه كما وقع في الفتوحات الإسلامية.

وكذلك أيضاً ما يجري اليوم من أحداث فهذا الذي يجري هو شبيه بأحد نوع من الجراحات نوع من الدروس العظيمة هذه الدروس يجب أن يأخذ منها الدعاة إلى الله عز جل وأن يقفوا عندها طويلا، وأن يستفيدوا منها.

فنقول: الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبين وأعداء الله من الملاحدة وغيرهم الدعاة إلى الله والعلماء وكل مسلم، نحن لا نفرق بين مسلم ومسلم. الكل اليوم مأمور أن يعمل لهذا الدين. هؤلاء جميعاً يجب أن يأخذوا الدروس مما يقع في داخل أمة الإسلام من أحداث وهذه الدروس هي دروس غزوة أحد، أين أسباب النصر وأسباب الهزيمة ؟ أين نحن منها؟ علاقتنا بالله صدقنا مع الله ؟ ماذا نريد بدعوتنا ماذا نهدف ؟ هل تغيرنا الأحداث هل هذا الداعية الذي يدعُ إلى الكتاب والسنة والتزامهما ويأمر الناس بالخير إذا دخل في مجال السياسة إذا به يتغير في قضاياه ومنهجه ؟ لا.

فهناك عبر ودروس كثيرة جداً: ونحن نعلم أنه بعد غزوة أحد تحزب الأحزاب، وبعد الأحزاب فتحت مكة انظروا إلى مسار السيرة النبوية، فنأخذ منها العبر في دعوتنا وفي ما نحن نواجهه وتواجهه الأمة الإسلامية؛ لأننا نخاف الآن. ويجب أن نقف وقفة قوية جداً نخاف الآن من أن هناك موجة ضخمة جداً صليبية يؤيدها أعداء الدين لحرب الإسلام لعقيدته ومظاهره في كل مكان.

وهذا يوجب المجاهدة في سبيل الله، والدعوة إلى الله وليس للإنسان في ذلك طريق إلا الصدق مع الله سبحانه وتعالى في علاقته بربه وفي منهجه وفي دعوته وفي أهدافه وما ذكره ابن القيم وما نقله حقيقة هو عنوان، هل ما يجري الآن للأمة الإسلامية هو لحظة القضاء على الإسلام؟

كلا لا يجوز لمسلم على هذه الأرض أن يظن بالله ظن الجاهلية لا يجوز في أحداث اليوم وما يجري في عالم الإسلام أن الله لا ينصر دينه ولا ينصر كتابه ولا ينصر سنة نبيه ولا عباده المؤمنين، لا يجوز أن يبقى في النفس يأس. وإنما هي المراجعة، والإقبال على الله، والتوبة إلى الله سبحانه وتعالى، ورص صفوف المؤمنين ليكونوا أمة واحدة. إنما هي الدروس والعبر التي استفادها الصحابة ولا ينبغي أن يبقى في القلب ظن فإياك ثم إياك أن يبقى في قلبك يأس فهو ظن من ظنون الجاهلية.

اعلم أن دين الله منصور وسيظهره الله على الدين كله وأن الله عز وجل ناصر هذا الدين ولو كره الكافرون.

إذاً خلاصة الباب الأول ظن المنافقين احذر منهم قديماً وحديثاً واحذر من صفاتهم قد يكون المؤمن الصادق يتلقى ويسمع شيء من أقاويل المنافقين فيأخذ به وهو مؤمن صادق فيكون عنده شيء من المرض لا يكون منافق لكن عنده شيء من المرض الذي يشيعه هؤلاء المنافقون.

احذر من الظن السوء بالله الله ناصر هذا الدين الله ناصرك يا أيها المتمسك بدينك مظهراً ومخبرا احذر من أن تزيل سنة رسول الله الواجبة لأن هي سنة عموماً وهي واجبة خصوصاً.

احذر أن تكون مهزوماً أمام هؤلاء سواء في حجاب المرأة المسلمة أو في مظهر المرء المسلم أو في دعوتك إلى دين الله أو في دعوتك إلى تحكيم شرع الله عز وجل أو في دعوتك إلى التزام الكتاب والسنة هذه كلها لا يغيرها زمان ولا مكان ولا تغيرها الأحداث فضلاً عن أن يغيرها أولئك المنافقون المرجفون بإعلامهم ونحو ذلك.

لا والله لا يمكن أن يغيروا ديننا ولا يملكون أن يغيروا حقائق شريعة الله عز وجل ودينه، انتبه إلى ذلك.

ثم الثاني احذر من الظن السيء في باب القدر كما ذكرنا في الباب الذي قبله، ثم بعد ذلك يأتي الأمر الذي يتعلق بنا جميعاً في حياتك وعلاقتك بربك سبحانه وتعالى إذا ما فاتك شيء، احذر من ظن السوء لا يكون في قلبك شيء من الاعتراض على أمر الله وقدر الله وما كتبه الله لك.

دائماً سلم أمرك لله اعتصم بالله عز وجل إياك هذه الحسيكة التي تحوك في النفس أحياناً وتقول لك أنا لماذا جرى لي كذا لماذا كذا أقصد في حياتنا العادية وهي التي أشار إليها ابن القيم في كلامه الأخير وقال فتش عن نفسك وقال فأن تنجو منها تنجو من ذي عظيمة وإلا فأني لا إخالك ناجيا. لماذا؟

لأنه من أمراض النفوس الدقيقة التي قد لا يأبه لها الإنسان فعليك أن تكون مع الله عز وجل وأن تظن بالله الظن الحسن وأن تحسن وتقوي رجاءك وظنك بالله سبحانه وتعالى وتعمل ما أمرك الله به.

أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الذين يؤمنون بالله ويتوكلون عليه ونسأله سبحانه وتعالى أن يقينا شر هؤلاء المنافقين وأذنابهم وصلى والله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.